

## ماهية التاريخ

هل تعرف كيف نشأت في وسط هذه البيئة الاجتماعية التي تتحكم في أفكارك ومشاعرك التحكم كله؟ وهل تفقه من سبب يجعل خضوعك لحكم البيئة التي نشأت وربيت فيها تاماً كاملاً؟ في حين ان عقلك طالما نزع بك الى الثورة ضد النظام القائم من حولك؟ وهل تعرف من سبب طبيعي ترجع اليه اذا حاولت أن تملل حقيقة ذلك المراك القائم في دخيلة نفسك بين ما يوحي اليك به عقلك، وبين ما تفسرك عليه مشاعرك؟ اذا كنت في حيرة من امرك ازاء هذا كله، فارجع معي الى جزائر البحار النائية، الى جزائر «تاهيتي» او جزائر «ارض النار»، وطف بمجاهل تلك البقاع التي لم يشع فيها الهدنية شعاع، ولم يرسل اليها العلم بمخيط من خيوطه المضئبة، منذ انفصلت ارضنا عن بقية النظام الشمسي لتدور حول فلکها المرسوم. هناك وبين عشار المستوحشين تلمس بيدك حقيقة ما يعني الطبيعيون «بالوراثة الطبيعية» التي خرج بها الانسان من ماضيه المشحون بما تعرف، وهو ضئيل تافه، وبما لا تعرف، وهو نيه موحش تعجز تخيلتك عن انه تدرك طرفاً من اطرافه، الا قليلاً

على ان احص ما تقع عليه مما يحيط بك من حقائق الحياة الانسانية في فطرتها الاولى، خضوعها خضوعاً اعمى لحكم القيب، دون حكم الشهادة. تخف بك حياة قوامها الشعور لا غير، ولبن تقع على اثر من آثار الحياة العاقلة التي تسكن لحكم العقل ولا تجاري العواطف وقواصر الطبيعة البشرية. وابلغ ما يأخذ بروحك في تلك الحياة، انك تلتقي نفسك محوطاً بمالم من الارواح فيه جمال، وفيه وحشة. فالصخور القائمة حولك، والاشجار الخافة بك، والماء والسماء، والدواب والهوام، بل انت نفسك، عبارة عن ارواح تتخايل اليك في سيرك وضججتك، في نومك ومجتك، في غدوتك وروحتك، متحركة في ماضيك ومستقبلك، مؤثرة في مراك وعلتك. وعلى الجملة يجيل اليك انك روح مسيرة في وسط عالم من الارواح، منفصل عن عالم المادة ولا يسبقن الى حدسك أنك عمرة مباشرة لمدينة القرن العشرين. فان ما فيك من أثر الماضي، من أثر آباتك في العصور الاولى اكثر مما فيك من أثر المدينة الحديثة. فان ابن الذين اعتقدوا بتعدد الآلهة، بل ابن الذين عبدوا الاحجار والاصنام والحيوانات والنبات، وقدسوا الوهم واماتوا العقل، ومشوا مع الخيال وتبدوا حكم القياس اللطفي. فيك من أثر تلك البيئة أضاف ما فيك من أثر القياس

في الفلسفة ، والتوحيد في الدين . بل جل ما يشك وبين آباءك من ، فرق انك اجزت دوراً لا يزال اولئك المستوحشون في جزائهم النائية عنواناً عليه في الزمان الحاضر . فاذا غمرت بانك من ابناء القرن العشرين ، قرن العلم والمدنية ، فلا تنس ذلك الماضي لتتخذ من القياس عليه نبراً تستضيء به ظلمات بحثك في تاريخ النوع الذي انت تابع لاحدى سلالاته ، ولتتذكر دائماً أنه من الاخرى بك ان تقول « كانت ابائي » بدل ان تقول « كان الاولون »

في عصر من تلك العصور التي قطعت الانسان في شوطها نحو المدنية الحديثة كان المعتقد ان الازمات التي أحاطت بالشعوب ، لا بل كل ما حث بالافراد من مطالب الحياة وقواصرها ، راجع الى فعل إرادة علوية تفعل في الجزئيات فعلها في الكلليات ، وأن كل نباتات النوع الانساني خاضعة لتأثير قوة من قوى الفيب او ما يسمونه ما وراء الطبيعة ، تختكم في كل دورة من دورات الحياة معها ضؤل أو عظم شأنها . لذلك لم يشمر العقل الانساني بحاجة ماسة لكي يتكشف سر العلاقة الكائنة بين « الماضي » و « الحاضر » ليربط بينها بسلسلة منظومة من الاسباب الطبيعية . بل أخذ لحكم الطبيعة والزمان فظل العقل لغواً طوال تلك الاعصر التي نزلت فيها الانسانية على حكم المشاعر وحدها . لهذا نجد أن التاريخ لم يُسَمَّ بشيء اذ ذاك غيبته باقوال مجموعة من الافراد والاشادة بذكر لقيف من الناس برزوا من بين الصفوف المتراسة ، وحكمت المشاعر بانهم ظلُّ من ظلال السماء فوق الارض ، وانهم المنفذون لما يريد القضاء . وما يعنى القدر في تلك الجموع التي استنامت لحكم المعتقد الثابت حتى سلهم ذلك المعتقد قوة البحث فظلوا على الروم عاكفين ، غرقى في السبات حول تلك الاسس التي شيد عليها صرح المجتمع البشري . وما أن انقضى ذلك العصر بما فيه من بواعث التخيل ، وما كان فيه من أوجه الجمال ، مقرونة بحيات القوة الشاعرة وحدها ، واستكشف العقل أن لموجات الحوادث الانسانية التي طمت على الازمان الاولى نظاماً تخضع له ، أشبه بنظام سير الاجرام في أنلاكها ، وأن الشعوب التي تطفو على وجه الحياة ، والشعوب التي يتنامى الحوادث الاجتماعية ، فتطمر في جوف الازمان ، هي بذاتها مظهر من مظاهر الحياة وحقيقة من حقائقها ، غير أنها عت باصلها البائد الى ابعد الازمان ابغلاً في احشاء الدهور الاولى . محوطة بآثار ما فيها من طبيعة الحركة وفسرة التقدم ودوافع الارتقاء ، هنالك شق التاريخ لنفسه في حياة الجماعات سبيلاً بكرأ ، وتوجه العقل

سلطاناً ميطراً على ناحية من نواحي المنفعة المحققة التي ينشدها الانسان في هذه الحياة الدنيا. هنالك نبت التاريخ طريقة الكوف على الكلام في دسائس الامراء وذوي المطامع من اهل الجاه ، وترك الكاهن في معبده يحاول ان يفسد السياسة بالدين ويفسد الدين بالسياسة ، واهمل حاشيات الملوك ومناقبهم ، وبما حكمت قواد الجيوش ومناظراتهم ، وعمد الى تدوين اوجه الحركة والنظام الذي يفيض به نهر الحياة الانسانية ، وطالما طفت على وجه الملوك والامراء على مدى العصور وكانهم فقايق متفجرة او فضلات الهشم المتناثرة تتلاعب بها أمواج يم تاثر ادركه المد في ليل معتكر الظلام قد تقول غير هذا. قد تقول ان تحليل حوادث الحياة الانسانية اذا أخذ يتعد شيئاً فشيئاً عن فكرة القول بان جزئيات الحياة وكلياتها جارية على مقتضى الارادة العلوية ، بعد ان عمد الناس الى تحليل الظواهر الكونية بالاسباب الطبيعية ، رجع العقل عن البحث وراء المصادر التي تحرك الحوادث ، الى البحث في الاسباب التي كونت الجماعات الانسانية . وهنا اتخذ التاريخ على انه قاعدة ثابتة لا يستطيع باحث ان يلجأ الى غيرها من ضروب المعارف الانسانية اذ ازمع ان يفقه شيئاً من طبيعة الحوادث « الحاضرة » ، او ان يكتشف نامراً يستهدى به ان هو اراد ان يتدبر « المستقبل » نظر في التاريخ هذه النظرة . نظرية بتلك العين التي ينظر بها الجيولوجي الى بقايا الحفريات المستحجرة ليتخذ منها حلقات وسطى تربط بين الانواع المختلفة . فان المؤرخين طالما حاولوا باستماتهم في درس الحالات العامة التي قامت في كل عصر من العصور ، ان يستشفوا حقيقة البواعث والاسباب التي يمكنهم من اكتناء المؤثرات الحفية التي تربط بين حوادث عصر حاضر باحد الحوادث وقوعاً في احشاء التاريخ الانساني يمكن هذا التصور من عقول الباحثين تمكناً ، وتغلغل في معتقد الناس ، حتى ان كل عقيدة او مذهب او نظام مدني او اجتماعي ، بل الفكرات الطافية على سطح الحياة اليومية ، قد اتي جماعها من الانصار من حاول ان يستكشف في تاريخها من الحلقات ما يربطها بمحادثات وقعت خلال ابد العصور ايضاً في صميم القرون الاولى ، أي بمحادثة اجتماعية او تصور من التصورات او مجدياً او مذهب فلسفي ، او باسطورة من اساطير الاولين . في ذلك زعة من زعات الفكر . فانتك نجد ان الراديكاليين يحاولون ان يقطعوا شوط الارتقاء قفزاً على الضد من كل تجانس في نظام الطبيعة ، تأييداً لوجهة نظرهم في الحياة وان الرجعيين باعتقادهم ان مدينة العصور الاولى اقرب الى مناهج الفطرة من مدينة العصور الحالية ، يعملون جهدهم ليعيدوا تيار التقدم راجعين بالافكار

والمذاهب والمعتقدات الى اوابد العصور الغابرة ، على النقيض من من نشوء ونواميس الارتقاء ، فلا تستطيع الا ان تحكم بان هؤلاء جميعاً انما يساقون في طريقهم سوقاً بمنقضى حكم الطبيعة ومبادئ الحياة ، فيجهدون انفسهم ويستون عقولهم ، ليثبتوا ان تصوراتهم ومعتقداتهم علاقة وصلة « بالماضي » الذي تقدسه المشاعر ، وان حكم ضده العقل . كل هذا ليبرروا ادعاهم بان معتقدتهم وشرعهم احق بالحياة والبقاء في عصر « حاضر »

ولذا تقصر استشهادنا على اراديكاليين والرجسيين ، او اية فئة من فئات الفلفة او العقائد ، ولعني جبابرة الملوك والقياصرة فوق عروشهم الزهية ، من حكم تلك النزعة التي تصور اكثر ما في التاريخ من حوادث ؟ ألم تر ملوك الدولات العظمى كيف نزلوا عما كانوا يدعون من استمداد سلطانهم من الله ، وكيف رجعوا عن الدعوى بان ارادتهم مستمدة من الارادة القدسية ، فترامهم وقد نزلوا على حكم الزمان وساروا بين انفسهم والدماء في نظر التاريخ ، فلم يجدوا من مبرر يبررون به وجودهم ، بعد ان تقوضت اركان حقوقهم المدعاة في سائف الازمان ، الا ان يلجأوا الى ذكر ما كان لوجودهم من أثر في قيام المدنيات وارتقاء الشعوب ، وانهم كانوا القوامين على الشرف الوطني ان تعبت به الايدي الاجنبية ، وانهم كانوا حفظة لآداب وخزنة المصالح الوطنية ، وانهم كانوا اول الآخذين بيد البلاغة والفن ، وانهم اول من عمل على سعادة الجماهير . الى غير ذلك مما يروي به التاريخ ، نجد من هذا عامة ان الملوك ورؤساء الدين ، اصبح حكمهم ازاء التاريخ حكم اصحاب المذاهب والمعتقدات ، اذ يحاولون ان يتخذوا من « الماضي » وثائق يمززون بها « الحاضر » ، وبزكونه بما فيها من الادلة والبراهين . ولن تدجز تلك النزعة التي صورت التاريخ على هذه الصورة عن ان نجد من الفكرات والنظريات ما يؤيدها . فكما ان التقاليد التي يرثها الفرد عن آباائه الاولين ، وطريقة التربية التي خضع لسلطانها ، والحوادث التي انتابت في الحياة ، وبمجهل الاحوال والمؤثرات التي كونته ، لا بد من ان تترك فيه أثراً يظهر بارزاً في اخلاقه ، ويتخذ دليلاً على ما فيه من عزة وشرف في حاضره ، وكذلك الحال في السوابق التاريخية التي وقعت في الحياة والافكار العامة ، قد يمكن ان تتخذ برهاناً يقتطع من « الماضي » لتبرير به الحالات « الحاضرة » . غير ان هذه السوابق التاريخية اذا اتخذت اسانيد مؤثوقة بصحتها وقوتها وان دلالتها على الاشياء ثابتة لا تبدل لها ، فتعمد سابقة منها الى ان تثبت ، بحكم العقل ونزعة البحث ، انها ذات الاثر الاوان في ابراز الاسباب التي ساقفت الى

حوادث الأزمان الفارطة ، معتمدة في ذلك على ما تقدمها من السوابق الاخرى ، فانا نشعر بان تلك الشبكة المتخالطة التي تفسجها السوابق التاريخية متنافرة الاجزاء تنافراً لا يعزز الرأي انفاً بل بان دلالتها على الاشياء والحوادث ثابتة ، وان الباطل ونزغات المشاعر لا تأتيها من بين يديها ولا من خلفها . وقد نسوق هذا الحكم عينه على اولاء من فلاسفة المؤرخين الذين يحاولون ان يعزوا السبب في نشوء الجماعات الانسانية الى فعل مؤثر بعينه من المؤثرات العامة ، كآثير الطقس او الفواعل الجوية ، او البيئة الطبيعية او علاقة رجل بالمرأة او مبدأ بقاء القوة في نظام المادة الى غير ذلك

ان « كارليل » اكثر الباحثين استماتاً في حقيقة الفكر ، واشد الكاتبين تبياناً لاضوالة المعرفة الانسانية ، قد اصح لكل المؤرخين ان ينصرفوا عن كل محاولة يراد بها اثبات ان نشوء الجماعات الانسانية راجع الى فعل مؤثر بذاته من مؤثرات الكون او الحياة ، وان الاجدر بالمؤرخ ان يبرز صورة واضحة جلية للعصر او الحادث الذي يؤرخ فيه ، ليخرج منه عظة او عبرة تنفع نفعاً مادياً في العمليات . لان ذلك في رأي « كارليل » اولى بالمؤرخ من ان يتطوح مع الظن ، ومن ثم يحتمل اليه ان يتصور او يعتقد انه بتعليل نشوء الاجتماع والجماعات استناداً على تفسير ظاهرات مبدأ من مبادئ الكون ، قد بلغ الى ابعد اغوار الطبيعة وانه احاط باسرار الغيب والمحجول ، في حين ان المعرفة الانسانية مقيسة باسرار تلك السوامم الخفية ليست الا كفلينة طافية على وجه بحر ما يتبخر له من قرار

غير ان « كارليل » مع هذا الاعتقاد يحتم على كل الباحثين وعلى الاخص المؤرخين منهم ، ان يترعوا الى البحث في « الماضي » — اذ يقول — « ان الماضي عبارة عن نبع المعرفة القياض الذي لا نستطيع بدون ان نترشد بضائمه ، نتعبدن او مدفوعين اليه بحكم القطرة ، ان نتدبر الحاضر او نتحدث عن المستقبل »

على هذا واستناداً على فكرة كارليل نريد ان نثبت ان للتاريخ ناحيتين لكل منهما كفاءة عقلية خاصة تدبرها وتكبرها ، ومن ثم تعود اليها . فان اعتبر التاريخ على انه مجرد رواية للحوادث ، اصبح راجعاً الى كفاءة الوصف في العقلية الانسانية .

وان اخذ التاريخ على انه تفسير فلسفي للحوادث اصبح عائداً الى كفاءة التأمل من هنا نستطرد الى الكلام في كلتا الناحيتين لنفصل بينهما ، ونعرف اثر كل

من الناحيتين ، ناحية الوصف وناحية التأمل في التاريخ ، في ارشاد الاجيال الحاضرة

## ثورة آراء

من الناس من لا يرى للأدب معنى ولا قيمة . اذا قلت له ما أجل الشرف اجابك جملة فارغة . واذا قلت ما أحسن إنكار الذات في سبيل المنفعة العامة قال كلام فارغ . واذا قلت ما أعظم فائدة الخوض للقوانين الادبية قال اعتقاد فارغ . وهكذا كل شيء ادبي ليس له عنده معنى ولا قيمة . اناس مثل هذا ذوو عقول ونفوس فارغة أضرب بالاسانية من جرائم اخبث الامراض

\*\*\*

ليست كل أنانية مذمومة . لانها على نوعين . أنانية قصيرة النظر واخرى واسعة . فالاولى متحطة مهلكة للمجتمع والثانية راقية وراعية له . وصاحب الاول ينكس في نفسه ويتخيل أنه الكل في الكل فلا يعمل الا للذة نفسه وراحته وسعادتها بكل الطرق مشروعة كانت او غير مشروعة . والثاني يخشع أنه قطعة من المجتمع الانساني وعضو من نوعه . وانه مها ساعد ومها ارتقى فهو شقي منحط ما دام مجتمعه بانسأ وضيماً . ومهما كان حراً عزيز الجانب فهو ذليل ما دام على وجه الارض انسان واحد مستعبد مقيون

\*\*\*

من اجل المواطف وارقاها عبة الحيوانات الاليفة والاعتناء بها والرفع من شأنها . وهي ادق مقياس لطية قلب الانسان . وان نظرة عبة وعطف يوجهها الا انسان الى كلب لهي نوع من التسبيح للإله

\*\*\*

كثير من الآلام مفيد حتى أن الادوية أغلبها مر المذاق . ولا اعلم لماذا تنكره الآلام لانها آلام ومحب اللذات لانها لذات . ان اللذة لا يجب أن تكون المقياس عند اختيار الاشياء بل يجب ان تكون المنفعة هي المقياس وعندئذ نجد ان فوائد الآلام اكثر من فوائد اللذات على وجه العموم حتى ان اكثر الاطعمة غذاء ونفعاً للانسان هي اقلها لذة في المذاق . ان الانسان الكامل هو الذي يعرف كيف يتلذذ بالآلام المفيدة اكثر مما يتلذذ باللذات المضررة او القليلة الفائدة ويعرف كيف يجعل ذلك ملكة فيه

من الناس من يعيش خائفاً قلقاً مضطرباً طيبة عمرو . اذا جلس خلة قاعداً  
على نار مضطربة . واذا مشى رأيتك كمن سيتخطفه الشيطان . واذا نام نام كالذئب  
او القنفذ . واذا تكلم خلت لسانه مقيداً فلا يجد الشجاعة الكافية لايداء آرائه .  
واي لا اعلم لماذا لا يريح هذا الانسان نفسه مع ان كل ما هو مكتوب له في لوح  
القدر سوف يحدث له حتماً . فان كان سيقتل فسيقتل . وان كانت ستقطع عينه فستقطع .  
وان كان سيصاب بمرض مزمن مؤلم فيصاب به . وان كان سيقرب منه كل ما يملك  
فسيسرق . فلماذا اذن يعيش في خوف واضطراب

اكثر اعمال الانسان وتصرفاته غريب عجيب فمثلاً الانسان الذي يقتل غيره يقتله  
اما لانه يتنافس في الاستيلاء على شيء مادي او ادبي واما انتقاماً لضرر اوقعه به .  
فالذي يقتل شخصاً لسبب الاول يكون واحماً اذا اعتقد انه قد تخلص من المنافسة  
لانه ما دام اجنبياً بطبيعته وما دام عائداً في مجتمع حتى ولو كان مكوناً منه ومن  
شخص آخر فقط فلا بد من انه سيتنافس لان منافسة الغير طبيعة في الانسان .  
وكل شخص مع اعتقاده انه فنان يتنى امتلاك العالمين . والقوة سبب الطمع  
واساسه . والضعف سبب الفتنة واساسها . والذي يقتل انساناً للسبب الثاني يكون  
خطئاً ايضاً اذا اعتقد انه قد عاقبه على ما ناله من الضرر منه لانه يكون في الحقيقة  
قد كانه احسن مكافاة . كانه ينقله من هذا العالم الذي لم يزل عالم شقاء وتمب  
وجهل وغرور الى عالم آخر ارقى منه بكثير

\*\*\*

كل شيء في العالم اسير فوهمة والنمل به في هذا الزمان الا غير فأصبحت الحرية  
التخلص من القيود الادبية والحروج عليها ومطووعة الامراض النفسية . والمساواة  
مساواة الفاضل بالردل اي مساواة الفضائل بالذائل . او تجريد الفضائل من قيمتها  
الادبية العظيمة . والاخاء مصادقة الافاضل الاتقياء بطاعة الاديان . اي اخاء القضية  
للرذيلة . والسعادة جمع المال بجميع الطرق شريفاً وخسيساً وانفاقها على جميع  
اللذات البدنية لا غير من ملابس فاخر وممكن نغم وما كل شيء وما شابه ذلك .  
والوطنية التعصب للوطن والتعدي على الامم الاخرى واستمبارها والتمسك على إسقاطها  
وسلب خيرات بلادها . والتدين التعصب للدين والجمود والتمسك بالخرافات التي  
نشوب جميع الاديان . والانسانية التظاهر بالمواطف الكريمة والانتظف . والتفوه  
بكلمات منحرج اغلبها من الفم لا من القلب مونييه حسين احمد طابدين